



Contents lists available at www.iusrj.org

International Uni-Scientific Research Journal

Journal homepage: www.iusrj.org



Educational Sciences, Humanities.

Orbital strategies

In the letter -promised and pension- to Al-Jaheer

الاستراتيجيات الحجاجية

في رسالة -المعاد والمعاش- للجاحظ

Bilal Dawood - بلال داوود

Article Info

Abstract

Article history:

Received: 25-01-2021

Accepted: 08-02-2021

doi:202101251143

Available

Keywords:

Pension and Ma'ad, Al-Jahiz,
Al-Hajjaj

المعاش والمعاد، الجاحظ، الحجاج

© 2021 DSDgates. OpenAccess

(الجاحظ)، إلى مُتلق (الوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات) ينتسب لفئة معينة (الوزراء)،^أ يوجه إليها الخطاب، وتستدعي في النهاية هذه العملية التواصلية بطابعها الإقناعي، مجموعة من التقنيات الحجاجية، يمكننا تقسيمها إلى ثلاثة عناصر أساس، وهي كالاتي: الإيجاد، والترتيب، والوجه الأسلوبية.

في سياق الرسالة

أهدى الجاحظ للوزير (محمد بن عبد الملك الزيات)، كتاباً في الأدب،^ب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش، يصف فيه علل الأشياء، ويُخبره بأسبابها، وما أجمعت عليه الأمم، ثم يصف الجاحظ طباع الناس والصفوة منهم وصفاً دقيقاً، ويُحلل خفايا النفس وتجلياتها المحمودة والسنيئة، ثم يقدم للوزير مجموعة من المعارف التي تهذب الأخلاق، وتبعث على التعفف والعدل والعقل المكتسب.

ويستطرد بعد ذلك في تحليل عادات الناس وسلوكهم، ويُقدم له وصايا ثمينة في كيفية التصرف مع الناس في طباعهم المختلفة. ولقد كان الجاحظ خلال الرسالة

الملخص

الحجاج من النظريات النقدية الحديثة التي لها أصول في التراث النقدي والأدبي العربي، ويقف البحث على رسالة المعاش والمعاد للجاحظ التي يوجهها إلى الوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات، لاستخراج التقنيات الحجاجية التي سطرت وفقها الرسالة، وكيف يعلل الجاحظ الأشياء، ويحلل خفايا النفس، ويقنعنا بالأخلاق، وأن للعلم لذة؛ فالذات لا تقتصر على المتع الحسية وإشباع الغرائز الشهوانية، بل تمت لذة روحية ووجدانية، وند الجاحظ استخدم العديد من تقنيات الحجاج، مثل: ذكر أقوال الحكماء، وحجية المثال، و الفصل، والحجة النفعية وغيرها، في أسلوب خطابي أدبي شائق..

المقدمة

رسالة المعاد والمعاش عبارة عن خطاب تواصلية، ولفظة مخاطبة تفيد في معناها المعجمي العام: المشاركة في الفعل، وكل مخاطبة بهذا المعنى تقتضي بالضرورة، مخاطباً ومُخاطباً، يُعتبر الأول مُرسلاً للحديث أو الخطاب، والثاني مُرسلاً إليه أو مستقبله، فالرسالة إذن تنطوي على وظيفة تواصلية، ولا يمكنها أن تتحقق خارج هذا الإطار، وهي بذلك تحمل رسالة معرفية معينة من مُرسل

Corresponding author

Bilal Dawood

Moroccan writer and researcher

The Mediterranean Center for Studies and Research

E-mail address: bilaldaoud61@gmail.com

الاستراتيجية الحجاجية للرسالة

سنشرح في رصد بعض الحجج التي استخدمها الجاحظ، قصد إرساء قواعد هذه الأخلاق النفعية، مستهدفاً بذلك توجيه مخاطبه وإقناعه، كما سنعمل على تحديد الاستراتيجية الحجاجية للنص^{xxv}، باعتبار الرسالة متوالية من الحجج التي حشدتها الجاحظ بغية الدفاع عن أطروحاته (موقفه).

يطل علينا الجاحظ في مُستهل الرسالة بأسلوب الحجج المباشر^{xxvi}، فقد وظف الحجج الجاهزة (غير المصطنعة)، والتي تتعلق بأقوال الحكماء^{xxvii}، والمختصة إجمالاً بالخطابة القضائية (الدفاع عن المخاطب وتبرئته من تهمة الانقياد للهوى)، والجاحظ بذلك يؤسس خطابه معتمداً على المخاطب، إذ يقول: (واني قد عرفتك -أكرمك الله- في أيام الحداثة...) ^{xxviii}، إذ تمثل هذه الفاتحة استهلالاً يتضمن وظيفة لسانية تتمثل في الدعاء، الذي ينتمي دلاليًا إلى أسلوب (الإشياء الطلبي)، وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت (الطلب)، والجاحظ في ذلك يمارس نوعاً من الاستدراج الماكر، حيث إنه يمنح المخاطب الثقة والاعتداد ليستوثق منه، ويأخذ عليه العهود الكفيلة بإصنائه وخشوعه^{xxix} يسترسل الجاحظ في رسالته^{xxx} (بعد الدعاء للمخاطب)، بسرد حججه، التي تلونت لجلها بلون حجة الاتجاه، مستخدماً أفعال الحض والتحذير. تبعاً لذلك فالرسالة عبارة عن سلسلة من الحجج المترابطة التي يسخرها الجاحظ في الأمر والنهي^{xxxi}، حيث إنه يتمها في سرد^{xxxii} حججه، معتمداً على مقابلة الرأي بالرأي، ومقارعة الحجة بالحجة، مستثمراً حجج الاتجاه والمنفعة استثمراً أساساً، حيث إنه يذكر: (فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب^{xxxiii}، جامعاً لعلم كثير من أمر المعاد والمعاش، أصف لك فيه علل الأشياء، وأخبرك بأسبابها، وما اتفقت عليه محاسن الأمم، وعلت أن ذلك من أعظم ما أبرك به، وأرجح ما أتقرب به إليك) ^{xxxiv}، كما ذهب الجاحظ لاستثمار حجة المثال، فلقد اعتمد الجاحظ على إعطاء مجموعة من الأمثلة من الظواهر الطبيعية: النار، والحطب، والمصباح، والدهن، يذكر الجاحظ: (وقد اجتمعت الحكماء على أن العقل المطبوع والكرم الغريزي، لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب، ومثلوا ذلك بالنار والحطب، والمصباح والذهن، وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة، وإنما الأدب عقل غيرك تزيد في عقلك) ^{xxxv}، كما نعتز في الرسالة على حجج الفصل القائمة على التمييز، من ذلك قول الجاحظ في مُستهل الرسالة: (...واني قد عرفتك - أكرمك الله- في أيام الحداثة، وحيث سلطان الهوى المخلط للأعراض أغلب على نظارك، وسكر الشباب... ففقتهم ببسطة المقدر... مع ما تقدمتم به من الوسامة في الصورة، والجمال في الهيئة) ^{xxxvi}، وقوله أيضاً: (...فاستعبدتهم الشهوات حتى أعطوها أزمه أديانهم... وخرجت نسيج وحدك أودحياً في نفسك...) ^{xxxvii}، وقد ختم الجاحظ الرسالة مستخدماً الحجة النفعية، إذ يقول: (فيأدر السنة الناس واشغلتها بمحاسنك، فإنهم إلى كل سئ سراع، واستظهر على من دونك بالفضل، وعلى نظرائك بالإنصاف، وعلى كل من فوقك بالإجلال، تأخذ بوثائق الأمور وبأزمة التدبير) ^{xxxviii}.

خاتمة

إن الحجج إذاً مسلك حوارية واستدلالية في رسالة المعاد والمعاش، يضممر استثماراً ضخماً للملكة الخطابية والجدلية في تداول المعرفة، وتنظيراً دقيقاً لفنون الجدل والخطابة والترسل، يقول الجاحظ: (ولن أدع من تلك المواضع الخفية موضعاً إلا أقيمت لك بها بإزاء كل شبهة منه دليلاً، ومع كل خفي من الحق حجة ظاهرة...) ^{xxxix}. ويظهر تشديد الجاحظ على تمسكه بالحق، وحرصه على عدم تسرب الشكوك إلى خاطر القارئ، فالجاحظ لا يقدم الضمانات الكبرى للقارئ، حتى يبرهن له على صحة ما يقول فحسب، وإنما لدفعه إلى تبني المواقف نفسها، وتشكيل أنماطاً للتوافق والتأثير فيه للاقتناع، يذكر الجاحظ: (...هيهات ما يكاد ذو التكلف أن يخفي على أهل الغباوة، فكيف على مثلي من المتصفحين؟) ^{xl}. وفي هذا السياق يذهب الجاحظ إلى ضرورة التركيز على مقصد أدبي مهم، يتمعن في إلهام المخاطب وإبلاغه محتوى الرسالة الأدبية، هذا الأخير الذي تتعاطف وظائفه الإبلاغية لتحقيق المقصد الأسمى المتمثل في البيان. ولما كان من المستحيل أن يقتنع المتلقي بما هو غامض وغير مفهوم في الخطابات المنجزة والمبلغية، وسعيًا إلى إبراز خطر الوظيفة الإقناعية، ازدادت عناية الجاحظ بالبيان الذي أطر أهم المباحث اللغوية، بل أضحي الموجه المعرفي لمسألة الوجود، من خلال المقولة الشهيرة التي أحسن الجاحظ صياغتها والمتمثلة في قوله: العالم الصغير (اللغة) سليل العالم الكبير (الكون) ^{xli}. وفي هذا الصدد، نقل لنا الجاحظ نص (المعاد والمعاش) بما يمثل من قيمة بلاغية وحجاجية.

حريصاً على عدم قصر الأخلاق على اللذة، وعلى عدم وقف اللذة على المتع الحسية وإرواء شهوات الغرائز، إضافة لهذا المفهوم، نجد الجاحظ يُضفي عن اللذة بُعداً آخر غير معهود، وهو البعد المعرفي حيث إنه جعل العلم ضرباً من ضروب اللذةⁱⁱⁱ.

تتمركز الرسالة إبدأً، حول مواقف أخلاقية نفعية^{iv} مشتركة، ونحن لا نستطيع إلى حدٍ ما فهم هذه الأخلاق بعيداً عن المرجعية التاريخية والحضارية، التي قادتهم صوب هذا الصّرب من السلوك، فما هي أبرز الدواعي التي استتارت الكتابة^v حول هذا الموضوع؟ تتجلى الإجابة عن هذا السؤال أكثر ما تتجلى، في النقلة الحضارية بمختلف عوالمها؛ الفكرية والاجتماعية والعلمية والنفسية والاقتصادية، التي وصلت إليها الحضارة العباسية، وتمثلت بتغيرات كثيرة على مختلف هذه الصّعد، من النّاحية القيمية والواقعية^{vi}. فأصبح (الزهر كما يقول ابن التوام في رسالته التي أوردها الجاحظ هو القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا) ^{vii}.

الوظيفة البلاغية للرسالة

وتتخذ الرسالة طابعاً تعليمياً-توجيهياً وإرشادياً- يبرز فيه الجاحظ قيمة الأخلاق^{viii} في المجتمع، وقد تطلب منه ذلك استخدام الأدلة والحجج بمختلف تلاوينها، وتضمينها ترتيبها- داخل موقفين توصليين سنعمل على تحديدهما^{ix}، فيقوم الموقف التوصللي الأول على الاحتراف بالمخاطب^x، والإشادة بأخلاقه^{xi}، إذ تتمثل وظيفة النص البلاغية في الدفاع عن قيمة الأخلاق النفعية، وجلب استحسان المتلقي، وقد استخدم الجاحظ الزمن الماضي، وكأنه يتوخي إثبات واقعة الحكم^{xii}، ابتداءً من الصفحة الموالية (أي الصفحة: 73)، يُصبح الموقف التوصللي مختلفاً^{xiii}، حيث إن النص ينتقل من وظيفة المدح والاحتراف، إلى الاضطلال بوظيفتي الحض والتحذير، فالجاحظ حريص على التزام المخاطب بالصفات والآداب، التي تصلح لإدارة أمور الدين والدنيا، وهي وسائل لتحقيق الخير في المعاد والمعاش^{xiv}، كما يحذره من مغبة المفخرة بالأنساب، لأنها صفة تشعل العداوة والبغضاء في نفوس الناس^{xv}، فمعيار التمايز بين الناس هو ما يمتلكونه من علم ومعرفة وأدب، وليس فيما يسبغونه الناس عليهم من مكانة وفضل، فالنص إذن يتوخي ترسيخ قيمتي النفع والمصلحة، ولأجل ذلك هيمن زمن المستقبل على بقية الرسالة.

مما سبق ذكره، أمكننا القول بأن الجاحظ رسم صورة لمخاطبه^{xvi}، وهي صورة أخلاقية تقييمية^{xvii}، ويحمل هذا التصوير بعداً بلاغياً حجاجياً، نلتمسه أثناء سرد^{xviii} الجاحظ الدقيق لخصال المخاطب المتعددة، إذ يأتي السرد في قالب توصللي حجاجي، وتتميز صورة المخاطب كما رسمها الجاحظ بمجموعة من السمات والخصائص، منها: (الوسامة في الصورة، والجمال في الهيئة، وصحة الفطرة، والطبع الكريم، وكمال العقل والفهم، وسلامة الدين، ووفرة المروءة، ونقاء العرض، والقبول، والمحبة، والشكر، والكرم، والأخلاق...).

فكرس الجاحظ هذه الصورة في مقدمات ومسلمات، مُرتبطة بمنظومة قيمية (حجاج بالقيم)^{xix}، يقول الجاحظ: (...فلم أزل في أحوالك كلها تلك بفضيلتك عارفاً، ولك بنعم الله عندي غايطاً، أرى ظواهر أمرك المحمودة تدعوني إلى الانقطاع إليك، وأسأل عن بواطن أحوالك، فيزيدني رغبة في الاتصال بك، ارتياداً... فلما محصنتك الخبرة، وكشف الابتلاء عن المحمودة، وقضت لك التجارب بالنقد، وشهدت لك قلوب العامة بالقبول والمحبة، وقطع لك عذر من كان يطلب الاتصال بك، طلبت الوسيلة إليك والاتصال بجللك، ومنتت بحرمة الأدب وندام كرمك) ^{xx} فالرسالة لا تقوم على خرق أفق المتلقي، بل تدفعه للتعاطف مع هذه الصورة (تصوير تقييمي)، والجاحظ بذلك لا يسرد خارج المقام، بل هو سرد مرتبط بمقام معين، أي له وظيفة عملية، من هذا المنطلق يعتبر سرد الجاحظ، سرد تتداخل معه تقنية الوصف^{xxi}، باعتبارها تقنية حجاجية موظفة في الرسالة، فالوصف المفصل لأحوال المخاطب، غرضه حجاجي محض، يتمثل في إبراز مكانة (المخاطب).

لينتقل الجاحظ بعد ذلك إلى تقوية خطابه الحجاجي، بتشكيل تفاعلات بينه وبين المخاطب، في مرحلة إنتاج الخطاب، كما في مرحلة إنجازها، فالجاحظ منتج للخطاب، وله دور مهم في بناء الخطاب الإقناعي، لأنه ليس مصدرًا للعمليات، ولا مجرد ذات لسانية، بل بوصفه فاعلاً اجتماعياً يفعل داخل مقامات اجتماعية ملموسة ومحددة، ويفترض هذا الدور كفاءات خاصة من الجاحظ، وهذا ما دفعه لتوظيف صورته الأخلاقية في الإقناع، يتجلى ذلك من خلال قوله: (فيزيدني رغبة في الاتصال بك، ارتياداً مني لموضع الخبرة في الأخوة، والتماساً لإصابة الاصطفاء في المودة...) ^{xxii}، وقوله أيضاً: (ولم أزل -أبألك الله- بالموضع الذي عرفت من جمع الكتب، ودراستها والنظر فيها...) ^{xxiii}، وقوله: (ورأيت كثيراً من واضعي الأدب قبلي...) ^{xxiv}.

قيم إنسانية، متراوحة بين الوعظ الديني والتوجيه الأخلاقي، الذي يؤثر في الجانب العاطفي للمتلقى، فيلعب هذا الجزء دورًا مهمًا في تحريك الحجاج، ففضية الاستنصار لأخلاق المنفعة تحتاج إلى كسب ثقة الآخر واستدعاء أحاسيسه تدريجيًا ومن ثم الإقناع بالحجة الدامغة.

xi- يحاول الجاحظ في المرحلة الأولى أن يكسب خصمه بالرفق والتلطف واستدعاء الأحاسيس والتخلق، (انظر الصفحات: 69-70-71)، وفي المرحلة الثانية يتبادل المعلومات والمنفعة معه، فهو لا يفرض نفسه على المخاطب، (انظر: 71-72-73)، بعد هذا التودد للمخاطب، تأتي المرحلة التي ينقض فيها الجاحظ على مخاطبه، ويسترسل في توجيهه، (وهو ما يشكل بقية الرسالة).

xii- انظر الصفحات: 69-70-71-72. من الرسالة.

xiii- انتقل الجاحظ من الموقف البلاغي القضائي، إلى الموقف البلاغي الاستشاري.

xiv- من ذلك ما استهل به الجاحظ رسالته: (...أما بعد فإن جماعات أهل الحكمة قالوا: واجب على كل حكيم أن يحسن الارتداد لموضع البغية، وأن يبين أسباب الأمور، ويهدد لعواقبها... فأما معرفة الأمور عند كشفها، وما يظهر من خفياتها، فذلك أمر يعتدل فيه الفاضل والمفضول، والعالم والجاهل). انظر: ص 69. لعل هذا الاستهلال في حد ذاته يمتلك دلالة إيحائية مهمة على مهارة الجاحظ، إذ يشكل مقدمة منطقية تشي ببطلان مزاعم المخالفين وخطأ آرائهم، وفساد عقولهم، كما تشي بمهارة الجاحظ في مخاطبة عقل المتلقي ومعرفته بكيفية استلاب مشاعر الآخرين، وذلك منذ الاستهلال، وهو أسلوب موروث من الخلفاء والخطباء قديمًا، فإنه من تمام البلاغة أن يتضمن الافتتاح أو المقدمة هذه الأساليب، فإنه إشارة إلى السبب واستدعائه، وإلى الغرض من الرسالة والإطالة عليه.

xv- يذكر الجاحظ: (...فإن أهل خاصتك والمؤمنين على أسرارك، هم شركاؤك في العيش، فلا تستهين بشئ من أمورهم، فإن الرجل قد يترك الشئ من ذلك اتكالا على حسن رأي أخيه، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو، حتى يولد ضعفاً ويحول عداوة فتحفظ من هذا الباب، واحمل إخوانك عليه بجهدك...)، رسالة المعاد والمعاش، ص: 76.

xvi- يذكر الدكتور محمد مشبال أن ثمة تلازمًا بين التصوير والحجاج، ليس في أدب الجاحظ فقط، ولكن في مطلق النصوص الأدبية)، انظر: البلاغة والسرد، ص: 6.

xvii- يمثل الخطاب البلاغي العربي، بلاغة نص، ذات مقصدية إيديولوجية مهيمنة، متنسبة الحقول والميادين، ومتعددة المفاهيم والمصطلحات، الواصفة للصورة البلاغية الواحدة. وهي بلاغة ذات وظيفة حجاجية (الخبر عند الجاحظ نوع من التحليل تبطن لفته بلاغة حجاجية، ذات وظيفة تعليمية وتربوية، وذات رؤية فكرية وفلسفية، في الإمتاع هناك الحجاج، وفي الحجاج هناك التحليل).

xviii- إن خطاب الجاحظ السرد، خطاب ذو ملامح فلسفية وأنساق فكرية، كشفت عن عقل الفيلسوف في إقناع الأديب المتبحر الحاذق، الذي يسوق الكلام بأهداف غير معلنة، وغايات غير منظورة، ويجند قدراته الثقافية والبيانية للإمساك بقوة التعبير، وشحن السرد بطاقت كلامية لها تأثيرات نفسية وفلسفية واجتماعية،

وتعبر عن قراءة فاحصة لجذور العقل العربي - الإسلامي، وفهم جلي للحياة الاجتماعية والفكرية لعصره، لأن الجاحظ عبر عن عصره خير تعبير، وكشف عن صراع الأفكار والمنطلقات الحقيقية لصيرورتها، وعن العلل والأسباب المنتجة لها. والجاحظ لا يسرد خارج المقام، بل يسرد داخله، أي له وظيفة عملية (يرسم الجاحظ صورة لنفسه وللوزير، وجزء كبير من حجاجية النص يرجع إلى شخصية الجاحظ ومخاطبه. وذلك في سياق البحث عن أنماط التوافق بين المتكلم والمتلقي. فنحصل بذلك على ثلاثة أصناف من الحجج داخل الرسالة (حجج عقلية/ عاطفية/ أخلاقية).

xix- استند الجاحظ إلى جملة من الوقائع والقيم التي يؤثرها الناس ليعضد بها أطروحة منها: (صحة الفطرة والطبع الكريم، وكمال العقل والفهم، وسلامة الدين، والمروءة، والنقاء، والأخلاق، والمحبة، والشكر، والكرم...) كما استند الجاحظ إلى قيم يبغسها الناس لينقض بها الأطروحة المناقضة مثل: (التحيف للمروءة والدين، والانقياد للهوى، والمهالك، وإباحة العرض، والندامة، والחסرة للجح، والمعاطب..).

xx- رسالة المعاد والمعاش، ص: 71.

xxi- والوصف في النص يتخذ وظيفتين: وظيفة جمالية أدبية تتلخص في فهم شخصية المخاطب والكشف عن أسرارها، ووظيفة حجاجية بمعنى أنه وصف تقني موجه، يضيء صفات إيجابية على المخاطب. (الوصف في الرسالة ليس مقصودًا لذاته، بل هو مطية لشئ آخر، أي أنه يأتي في سياق حجاجي ملتحمًا باليات حجاجية، مثل (حجة الاتجاه)، فالجاحظ عندما يصف ليمدح، فهو يتحالف مع المتلقي، عبر مجموعة من القيم المشتركة، التي تُبنى حجاجية النص استنادًا عليها (كقيمة العدل والمصلحة والأخلاق). وبني النص كذلك على مواضع

i- أرسل الجاحظ هذه الرسالة للوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات، لا استهدافًا للكسب المادي -وهو حق مشروع في عرف ذلك الزمن والأزمنة التالية- بل لجعل الرسالة دستورًا أخلاقيًا، يستضيء به الوزير ومن شابهه في إدارة الدول.

ii- ورد لفظ (الأديب) في رسالة المعاد والمعاش خمس مرات: (...فأريت أن أجمع لك كتابًا من الأديب، جامعًا لعلم كثير من أمر المعاد والمعاش...)، ص: 72 - (...وإنما الأديب عقل غيرك تزيده في عقلك.)، ص: 72 - (...ورأيت كثيرًا من واضعي الأديب قبلي، وقد عهدوا إلى الغابرين بعدهم في الأدب عهدًا قاربوا فيها الحق...)، ص: 72 - (...طلبت الوسيلة إليك، والاتصال بجلتك، ومنت بحرمة الأديب، ودمام كرمك.، ص: 71. لكن ما كان يشغل فكر الجاحظ في المقام الأول؟ إنني أرى أن ما كان يشغله هو إصلاح العالم بواسطة الأدب، فالأدب وسيلة وضعها الإنسان لإعادة توحيد الطابع بعد اختلافها، وتأليف الأجناس بعد تفرقها، وذلك بتفكيح عادات ترمي إلى إنماء طابع جديد في الإنسان، لإصلاح القديمة أو لتغييرها تمامًا، لاحظنا كيف أن الجاحظ مدح الوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات، فكما يمتلك الأدب القدرة على التحسين والتجميل، فإنه في الوقت نفسه يمكن أن يكون أداة يوظفها الأديب، في سبيل تزييف الواقع والحقائق، ذلك أن من حدود الأدب أنه "تصوير الباطل في صورة الحق". (نفسه، ج 1، ص: 113، ص: 220). فقد جاء سرد الجاحظ الصافي النقي، انتقالة نوعية من سرد الوعظ الديني والأخلاقي، إلى السرد الأدبي الذي يطمح أن يؤسس له ضوابطه ونظمه الفنية واتجاهاته العقلية البعيدة، عن إطار المؤسسة الدينية القريبة من منهج الحوار والجدل، والبحث عما هو بين السطور.

iii- ويذكر الجاحظ: (...وهذه أسباب تكاد أن توجب الانقياد للهوى، وتلجج في المهالك، ولا يسلم معها إلا المنقطع القرين في صحة الفطرة، وكمال العقل، فاستعبدتهم الشهوات حتى أعطوها أزمة آديانهم، وسلطوها على مروءاتهم، وأباحوها أعراضهم، فألت بأكثرهم الحال إلى ذل العدم، وفقد عز الغنى في العاجل، مع الندامة الطويلة والחסرة في الأجل. وخرجت نسيج وحدك أوجدًا في نفسك، حكمت وكيل الله عندك -وهو عقلك- على هوك، وألقت إليه أزمة أمرك، فسلك بك طريق السلامة، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة، وبلغ بك من نيل اللذات أكثر مما بلغوا، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا، وصرفك من صنوف النعم في أكثر مما تصرفوا، وربط عليك من نعم الله التي خولك ما أطلقه من أيديهم إيثار الله وتسليطهم الهوى على أنفسهم فخاض بك تلك اللجج، واستنقذك من تلك المعاطب، فأخرجك سليم الدين، وافر المروءة، نقي العرض، كثير الشراء، بين الجدة، وذلك سبيل من كان ميله إلى الله أكثر من ميله إلى هواه). iii

iv- الأخلاق في المفهوم الجاحظي هي ضروب من السلوك البشري الباعثة للسرور والغبطة في نفوس الآخرين إن كانت إيجابية، والداغية للهجنة والنفور في نفوسهم إن كانت سلبية. ومعيار الفضيلة عنده هو التوسط والاعتدال، لأن الإفراط والتفريط في نظره مردولان كلاهما.

v- نفهم من الرسالة أن الكتاب كانوا يحتلون مناصب الدولة ويتولون شئونها، وأصبح الكاتب في العصر العباسي مرادفًا للمنتقف، فجاءت الرسالة لتعبر عن مرحلة الانتقال من الخطابة إلى الكتابة، ففي الرسالة نبرة خطابية واضحة، ولو أنها اتخذت الصيغة الشفوية لأصبحت خطبة.

vi- نخلص إلى القول هنا، بأن الأخلاق خلاصة القيم التي يحملها المجتمع ويتبناها، وهي في الوقت نفسه نتيجة للعلاقات القائمة في هذا المجتمع أو ذاك ومن ثم من البديهي أن تتغير المنظومة القيمية للمجتمع تبعًا للظروف المرحلية والتاريخية التي يعيشها بمختلف حواملها الفكرية والعلمية والسياسية والاجتماعية. ومن هنا فإن الفلسفة الأخلاقية الجاحظية صدى لعصر الجاحظ ومنظومته القيمية.

vii- الجاحظ: البخل - ص: 242.

viii- هذه القيمة ليست فنية (إمتاعية) بل هي قيمة نفسية (إقناعية) تندرج ضمن مصالغ المعاد والمعاش.

ix- أسلوب الجاحظ يميل إلى إثارة الأسئلة وإشاعة الحوار وفتح المناقشة والجدل من خلال ضمير المخاطب (أنت)، لإثارة المتلقي ودفعه للإسهام في إحلال روح المشاركة مع المتلقي، لذا فإنه يبدأ رسالته بمقدمة توضح الصلة الحية بين الكاتب والمكاتب له وهو القارئ المتلقي الأول، الذي عليه أن يستجيب لمنطق الفهم لدى الجاحظ. (انظر، ص: 73).

x- وهو الجزء المتعلق بالنوازع والأهواء والانفعالات، الذي يضم حصة الأسد في الرسالة (الاستهلال) و(الخاتمة)، باعتبارها مصدرًا حجاجيًا ينتغي كسب ثقة المتلقي (إيقاعه في الشرك الذي أعده الجاحظ له) واستدراجه شيئًا فشيئًا إلى الاستجابة لكل حجج الرسالة وتغيير معتقداته. وما نستشفه أيضًا، الحالة الانفعالية التي تجلت من خلال متغيرات صورته (نبرة الإعجاب لدى الجاحظ بالمخاطب) الممزوجة بأقوال ملطفة باعثة على الألفة والمودة، وما تشكله هذه الدلالات من

مشتركة، نذكر موضع قيمي مفضل هو الوحدة بدل التجزئ (فالصحة أفضل من الفراق)، والكيف بدل الكم (واضعي الأدب أكثر، ولكن العلل فيه غير متبينة والأسباب غير مكشوفة...).

xxii- رسالة المعاد والمعاش، ص: 71.

xxiii- نفسه، ص : 73.

xxiv- انظر الصفحتين: 73-74.

xxv- هدفنا في هذا المقال هو إبراز بنية النص الحجاجية والتداولية، باعتبارها تقوم على الحجج وتسعى إلى التأثير، طموحنا الكشف عن خصوصيات بلاغة الجاحظ، تلك البلاغة التي تنظر إلى النص باعتباره فعلاً من أفعال التواصل الحجاجي.

xxvi- هذا الاستهلال الحجاجي لا يهدف إلى المحاججة فحسب، وإنما هو وعد بمتتالية من الحجج الإفهامية، فالجاحظ ينتقل في خطابه من حجة إلى حجة، بهدف تصنيف خطابه، وتمتين دعائمه، وفي كل انتقال يحرص على دفع مخطئه الحجاجي نحو إطار تفاعلي يقوم على الانتقال من العام إلى الخاص، ومن الأهم إلى المهم.

xxvii- رسالة المعاد والمعاش، ص: 69.

xxviii- نفسه، ص: 69.

xxix- الحجاج قد ينزلق هنا إلى ما يسمى بالإكراه أو العنف الخطابي، أي التطويق، وهذه من الثغرات الحجاجية.

xxx- وغالباً عند الجاحظ يبتدئ السرد من حيث ينتهي.

xxxi- يقول الجاحظ: (اعلم أنك إذا أهملت ما وصفت لك...)، ص: 75، (...واعلم أن إجراءات الأمور مجاريها...)، ص: 75، (...فلا تدع الاعتذار...)، ص: 76، (...فلا تستهين بشئ من أمورهم...)، ص: 86، (فتحفظ من هذا الباب، واحمل إخوانك عليه بجهدك...)، ص: 76. (...فاعرف طرائفهم وشيمهم، وداو كل من لا بد لك من معاشرتهم...)، ص: 77، (...واعلم أن المقادير ربما جرت...)، ص: 77، (...ولا تكونن بشئ مما في يدك أشد ضئاً)، ص: 77، (...فإن صفا لك أخ فكن به... ثم لا يزهذك فيه أن ترى...)، ص: 78، (...واعلم أنك موسوم... فتحرز من دخلاء السوء... وأظهر مجانية أهل الريب...)، ص: 78، (...واعلم أن المرء بقدر ما يسبق... فاجهد أن يكون... فبادر ألسنة الناس... واستظهر على من دونك بالتفضل...)، ص: 79.

xxxii- فالجاحظ يحرص على مجابهة الظلم مستفيداً من قدرته على توظيف الكلام، واعتماد فلسفة خاصة لجعل هذا السرد وسيلة من وسائل التلاعب بالألفاظ، وإثارة حفيظة الناس، واتخاذ موقف واضح ضد السلطات التي همشت الفكر، وأبعدت التيار الاعتزالي عن دائرة النفوذ.

xxxiii- رسالة (المعاد والمعاش) رسالة ذات طابع موسوعي محض، أي أنها نوع أدبي جامع لأنواع كثيرة وهذا يدل على اشتغال الذاكرة لدى الجاحظ أكثر من اشتغال الإبداع والتخييل، وهذه ضرورة، ومقتضى من مقتضيات الحجاج، فالتداخل بين الأنواع والأشكال هو المدخل الملائم لقراءة نص الرسالة وبلاغتها

قراءة نوعية، ثم إن مفهوم الكتابة عند الجاحظ القائم على تداعي الشواهد وتنوع مصادرها، هو الذي يحمل الباحث على الإقرار بسقوط الحواجز بين الأجناس الأدبية (البلاغة والسرد، ص: 116)، وبأن - ليس للجنس الأدبي سلطة مطلقة على نصوص الجاحظ... إن الجنس الحقيقي عند الجاحظ هو الأدب (صناعة الكتابة عند الجاحظ، الشاهد الأدبي في المفخرة، ص: 282/281). فلقد خطا النثر خطوة واسعة في العصر العباسي، فهو لم يتطور من حيث موضوعاته وأغراضه فقط، بل إن معانيه قد اتسعت وأفكاره قد عمقت، وأخيلته قد شحذت، لأن مشاهد الحياة ومقوماتها العامة قد تغيرت كما ذكرت سابقاً، فقامت بذلك بلاغة الرسالة على أساس أنها نوع تتفاعل فيه الأجناس (فسيفساء من النصوص)، فالرسالة نمط حجاجي تقتضي بلاغته استدعاء الشواهد الأدبية من مصادر متنوعة، تنتمي إلى أشكال تعبيرية مختلفة، كالشعر والخبر والمثل والحكمة والقول المأثور والوصية والدعاء... الخ، وهذا التفاعل بين الأجناس يثبت أن مفهوم النوع عند الجاحظ خاضع لمفهومه للأدب، القائم على مفهوم النص الجامع، دون أن ينفي عنه خصوصيته، كما يشكل سمة في تأسيس بلاغة الرسالة.

xxxiv- المعاد والمعاش، ص: 73.

xxxv- نفسه، ص: 73.

xxxvi- نفسه، ص: 70-69.

xxxvii- نفسه، ص: 70.

xxxviii- نفسه، ص: 79.

xxxix- نفسه، ص: 74-75.

xl- المعاد والمعاش، ص: 82.

xli- انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 70.

المراجع

1. البلاء، الجاحظ، ضبطه وشرحه أحمد العوامري بك، وعلي الجازم بك، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
2. البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، محمد مشبال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 1431هـ/2010م.
3. البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1418هـ/1998م.
4. الجاحظ، حياته وأثاره، طه الحاجري، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت.
5. رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجبل، بيروت، 1412هـ/1991م، عدد الأجزاء 4، رسالة المعاد والمعاش، توجد ضمن: ج1، (من ص: 87 حتى ص: 134).